«الجديد في حياتي»

شهادة حسام أبو سيني، مسئول جماعة حركة الشراكة والتحرر بالأراضي المقدسة، بالڤيديو عبر الانترنت من حيفا (إسرائيل)، في يوم بداية العام لحركة الشراكة والتحرر بإقليم لومبارديا

مساء الخير عليكم جميعاً أنا حسام . لمن لا يعرفني، أنا كاثوليكي، عربي، إسرائيلي، من أصل فلسطيني. إنه أمر معقد... أعمل طبيب أورام، ولدت وكبرت في مدينة الناصرة وحالياً أعيش في حيفا، وهي مدينة ساحلية في شمال إسرائيل، حيث أعيش فيها مع كيارا [Chiara]، زوجتي الايطالية، وطفلينا الصغيرين.

التقيت بالحركة في عام ٢٠٠٨ عندما كنت أدرس الطب في تورينو. وهناك التقيت بمجموعة من الأشخاص أثناء الانتخابات الجامعية. لقد كانت فترة حساسة للغاية في حياتي قررت فيها ترك الجامعة لأنني كنت أشعر بالوحدة. ولكن، في تلك اللحظة تحديداً، التقيت بهؤلاء الأشخاص، ولا سيما الشاب الذي صار فيما بعد من أفضل أصدقائي وشاهد لزواجي، والذي أهداني نسخة باللغة العربية من كتاب «الحس الديني». وعندما عُدت إلى المنزل، قرأت هذا الكتاب. في البداية لم يكن الأمر سهلاً، ثم قرأته مرتين، لكنني فهمت أن الأسئلة التي كان يتحدث عنها هي تلك التي كنت أواجهها وقلت في نفسي: «إذا أهداني ذلك الشاب هذا الكتاب، فهذا لسبب: لأنه يريدني هناك». لذلك عدت إلى تورينو، وأنهيت دراسة الطب، وبفضل ذلك اللقاء أصبحت الآن طبيباً وأنا هنا أتحدث معكم عن ذلك.

من خلال لقائي بهؤلاء الأشخاص، فهمت أن هناك طريقة أخرى للتعامل مع الأشياء، فقد كان هناك حُب مُنح لي مجاناً ولم يُطلب مني سوى المعاملة بالمثل. لذلك، في عام ٢٠١٦، أُنهي دراستي الجامعية وأقرر العودة إلى منزلي بالأراضي المقدسة، وفي ذهني فكرة جلب (خبرة) الجمال والامتلاء التي إلتقيت بهما في إيطاليا إلى المسيحيين هنا، وإلى الناس الذين يعيشون هنا، حتى يمكنهم رؤية ما رأيته. كان عندي أيضاً ذلك الموقف ''الإيديولوجي'' الذي يتبناه الجميع هنا تقريباً: نحن المسيحيون، ونحن العرب، لقد كنا هنا من قبل ويجب أن نبقى هنا. وفي المسيرة التي سأحكيها لكم الآن، ستفهمون أن هذه الفكرة – التي هي فكرة أيديولوجية – تنهار في الحال، عند أول عاصفة، أولاً وقبل كل شيء بالنسبة لي. ما فهمته من كل الأحداث التي سأحكيها هي عبارة قالها لنا المونسنيور باولو مارتينيللي [Paolo Martinelli]، النائب الرسولي لجنوب الجزيرة العربية، في الاجتماع العام بالشرق الأوسط ثم في اجتماع المسئولين الدولي: «أن نكون مرسلون يعني أن هناك شخصاً ما أرسلنا لشخص ما، مع شخص ما». لقد فهمت ذلك بالفعل في اللقاء الذي تم في تورينو، ولكنني فهمته أكثر بعد ذلك، عندما كنت هنا، لأن أول شيء فعلته، عندما عُدت، كان البحث عن جماعة الحركة. لذلك بدأت بقضاء الوقت معهم، ولكن بعد ذلك، بدأت أبتعد قليلاً لأكرس وقتي لعملي. لكنني لم أكن سعيداً كما كُنتُ في إيطاليا، بذلك

الامتلاء والجمال الذي حدثتكم عنه. وفي أحد الأيام، دعاني أصدقاء من جماعة الحركة لتناول العشاء وكنت أرغب في الذهاب لأنني اشتقت إليهم. لكن أثناء ذهابي، قلت لنفسي طوال الرحلة: «الآن سيبدأون بالقول لي: «أين كنت؟ لماذا لم تعد تأتي، ولم تَظهر؟ لقد قُلتَ أن هذا هو أول شيء بحثت عنه...». كان العشاء في بيت لحم، وعندما وصلت، لم أرغب في الدخول، إذ أردت العودة إلى المنزل؛ وقبل صعود درجات السلم قلت: «لا، لا، الآن سيغضبون...». فدخلت وكان هناك صديق لنا، إيتوري [Ettore]، أحد أعضاء جماعة حافظي ذكرى الرب [Memores Domini] الذي يعيش هنا منذ عشرين عاماً، والذي بمجرد أن رآني عانقني وقال لي: «لقد افتقدتك!». كان لذلك العناق معنى كبير بالنسبة لي. فقلت لنفسي: «أين يمكنك أن تجد عناقاً كهذا؟». إنني أحمل هذا العناق معي حتى يومنا هذا. ففي الواقع، عندما طلبوا مني في عام ٢٠١٨ تحمل مسؤولية جماعة الحركة في الأراضي المقدسة، أجبت بنعم على الفور، لأنها كانت الطريقة لتبادل الحب الذي أتلقاه باستمرار.

لقد حكيت لكم هذين الحدثين كي تفهمون ما قلته في البداية، نقلاً عن المونسنيور مارتينيللي: «أن نكون مرسلون يعني أن هناك شخصاً ما أرسلنا لشخص ما، مع شخص ما». كان هذا العام – عام الحرب – مهماً جداً بالنسبة لي. لقد قمت فيه شخصياً بالعديد من الخطوات، وكذلك كل الجماعة.

في ٧ أكتوبر ٢٠٢٣ كنا نقضي أجازتنا. ولأول مرة، قمنا بذلك في بداية العام وليس في نهايته، وذلك على وجه التحديد ليتزامن مع يوم بداية العام. دعوني أشرح لكم تعقيدات جماعتنا المختلطة : فهناك أنا وزوجتي وأولادي، وأنا عربي إسرائيلي؛ وهناك شابة عربية إسرائيلية أخرى؛ وشاب إيطالي يدرس الدكتوراه في حيفا؛ وبعض أعضاء جماعة حافظي ذكرى الرب[Memores Domini] الذين يعيشون في القدس؛ وأربع نساء فلسطينيات من بيت لحم وشابتين كاثوليكيتين أخرتين تتحدثان العبرية. كانت أجازتنا في الفترة من ٦ إلى ٨ أكتوبر، في بلدة صغيرة تسمى أبو غوش ، على بعد عشرين دقيقة شمال القدس. نبدأ في السادس من الشهر بالمقدمة، ثم الألعاب، ثم المناخ الجميل والبيئة الجميلة... ونستيقظ في اليوم السابع من أكتوبر ونحن نشاهدكل الفيديوهات ونستمع إلى الأخبار حول ما حدث في المستوطنات القريبة من غزة. وشعرنا في الحال بلحظات من التوتر والقلق. وكان معنا أربعة أشخاص جاءوا من إيطاليا لمرافقتنا، ومن بينهم المسئول الزائر لجماعتنا، وفي البداية قررنا مواصلة الاجازة، لأننا لم نتمكن من الرحيل على أي حال: ثم سمعنا الصواريخ والتفجيرات وبدأنا في تلاوة تسابيح الصباح سوياً. لقد كانت أول نقطة هامة بالنسبة لي: فهناك أدركت أن الوحدة جاءت بها الظروف، نعم، لكننا كنا متحدين لأننا كنا جميعاً ننظر من نفس المنظور. لقد أذهلتني جداً العبارة التي كتبها بطريركنا الكاردينال بييرباتيستا بيتسابالا [Pierbattista Pizzaballa] إلى الأبرشية بأكملها: «حيثما توجد الفوضى، الله وحده هو من يستطيع أن يحقق النظام». كان من الممكن أن يكون ذلك اليوم هو الأكثر فوضى في تاريخنا، ولكنه مر بنظام لا يُصَدَّقْ. فالله وحده هو القادر على تحقيق النظام وكنا جميعاً ندرك ذلك، وكنا جميعاً ننظر في نفس الاتجاه. وبينما كنا نقوم بيوم بداية العام الذي بدأناه مبكراً في الصباح، سقط صاروخ على مسافة ثلاثمائة متر منا (وكان معنا أطفال!). كان الشيء الجميل

هو كيف دخلنا جميعاً إلى المخبأ، بنظام لم نشهده من قبل، كأسرة: فالعربي يسأل عن اليهودي، واليهودي يسأل عن العربي. لقد اكتشفنا أنفسنا حقاً كإخوة كانوا يقضون أجازة معاً. وبعد الظهر، ولتخفيف التوتر قليلاً، لعبنا بعض الألعاب، حتى وصلت أنباء عن احتمال إغلاق نقاط التفتيش بين القدس وبيت لحم إلى أجل غير مسمى. لمن لا يعرف ، هناك جدار عازل بين إسرائيل وفلسطين ويحتاج الفلسطينيون إلى تصريح خاص لعبور نقاط التفتيش. وإذا ظلت مغلقة إلى أجل غير مسمى، فسيظلوا عالقين في إسرائيل دون أن يتمكنوا من العودة إلى عائلاتهم. فصلينا القداس بسرعة حتى نرحل بعد ذلك. وقالت لي صديقة لنا من بيت لحم، وهي تغادر والدموع في عينيها: «يجب أن أعود إلى المنزل، إلى عائلتي، لكنني لا أريد أن أفقد الخبرة القوية التي نعيشها هنا». فعانقتها وأجبتها قائلاً: «انظري، الأمر لا ينتهي هنا. إنه يبدأ من هنا! وقال صديق لنا جاء من إيطاليا: « نحن واحد». لقد كان هذا شعارنا طوال العام، وسأخبركم عن السبب فيما بعد.

ونعود إلى منازلنا، وبعد ذلك ما زلنا لا نعرف إلى أين نحن ذاهبون، ونواصل المُضِي قُدُماً دون أن نعرف. وبعد عشرة أيام من بدء الحرب، أعلن الكاردينال بيتسابالا عن يوم للصوم والصلاة. وقد أذهلني هذا كثيراً: فقد كان حضور الكاردينال بيتسابالا في الأشهر الأخيرة أمراً أساسياً ومهماً للغاية بالنسبة لي ولجماعتنا، لأنه كان الوحيد الذي دعا إلى السلام بين شعبين كانا يصرخان طلباً للانتقام. وكتب في رسالة إلى الأبرشية بأكملها: «لقد انتصر المسيح على العالم بمحبته له»، وهذا يجب أن يمنحنا الشجاعة لنقول من نحن. أنا، بفضل ما قلته لكم سالفاً – منذ اللقاء الأول حتى عودتي وإلى عناق إيتوري، وحتى تلك الأجازة – فهمت أن المسيح انتصر عليّ بمحبته لي، وتقديم محبته لي، ولم يطلب مني سوى أن أبادله المحبة بالمحبة. وهذا يجب أن يمنحني الشجاعة لأقول من أنا.

في يوم الصوم والصلاة ذاك، ذهبت أنا وزوجتي إلى القداس، وكان ذلك مساء يوم الثلاثاء، وقد أدهشني كثيراً ازدحام الكنيسة، والتي يذهب إليها الناس عادةً عندنا في أيام الأحد فقط: وهناك اكتشفنا أنفسنا كجزء من شعب، شعب يصرخ من أجل السلام. ولهذا السبب – في البداية بناءً على طلب زوجتي، ثم بالحكم سوياً – قررنا تقديم موعد معمودية ابنتنا مارتا، التي كان عمرها أربعة أشهر في ذلك الوقت. أولاً: لأننا، بالحكم مع الأصدقاء، كنا خائفين، ولم نكن نعرف كيف ستسير الأمور. ثانياً: لأننا أردنا أن تكون ابنتنا جزءاً من ذلك الشعب. وثالثاً : أن نُودِعَهَا في عناية (الله) الوحيد الذي أعطانا الأمل والرجاء في وقت لم يكن فيه أمل أو رجاء للوطن. كانت المعمودية جميلة: احتفلنا بها هنا في حيفا، في كنيسة صغيرة للكاثوليك للناطقين بالعبرية (كاهن الرعية إيطالي وفي السنوات الأخيرة أصبحنا أصدقاء) وتم الاحتفال بثلاث لغات مختلفة: الإيطالية والعربية والعبرية. أقول لأصدقائي دائماً: «ابحثوا لي عن مكان، في هذا الوضع، حيث تلتقي هذه اللغات الثلاث معاً!». لقد كان احتفالاً رائعاً حقاً أن نُودِعَ ابنتنا بين يدي (الله) الوحيد الذي أعطانا الأمل والرجاء في تلك اللحظة. وأقول أيضاً – كأب – إن أجمل أشكال الحب التي يمكن تقديمها لإبن هو أن أُوْدِعَهُ في عناية (الله)، لأنه إذا لم يكن هذا هو الحب، فهناك خطأ ما. وهناك أدركت أكثر فأكثر أنه الحب هو الذي يميز حياتي ويرافقني في العمل الذي أقوم به.

أعمل كطبيب أورام في مستشفى هنا في مدينة حيفا. وهو مستشفى مختلط، فيه يهود وعرب ومسيحيون ومسلمون. لذا فإن المناخ متوتر بالكفاية. دار حوار هام لي مع سكرتيرتي، وهي عربية مسلمة، أخبرتها فيه عن لقائي بالحركة عن طريق صديق أعطاني كتاب « الحس الديني » . وفي لحظة معينة تقول لي: «لكن كيف تستطيع أن تتحدث دائماً مع الجميع وتقول رأيك دون أن تسبب إزعاج لأحد؟ ربما حتى وأنت تفهم الآخر؟». أقول لها: «انظري، إن مؤسس حركتنا، الذي حَدَّثتُكِ عنه، قال لنا إن محبة المختلفين لا تكون ممكنة إلا إذا كنت محبوباً. وأنا أتلقى هذا الحب في كل وقت». فتسألني: «هل فهمت ذلك من خلال قراءة كتب ذلك المؤسس؟». «لا، ليس هذا فقط. لقد فهمت ذلك أثناء وجودي مع أصدقائي». وهي تسأل مجدداً: «ولكن هل يوجد مثل هؤلاء الأصدقاء؟». وهناك أدركت أن العالم متعطش لصداقتنا، ولما نختبره ونعيشه. فبدأت أفهم أكثر فأكثر أننا هنا ليس لأننا كنا هنا من قبل، ولكن لمهمة، أن نعلن للعالم تلك الصداقة التي هو متعطش لها حقاً.

أحكي لكم موقف آخر حدث مع مريض يهودي توفي في ٢٨ أبريل الماضي. هذا الرجل، الذي أحببته كثيراً، كان مصاباً بسرطان الرئة النقيلي. جربت معه كل شيء (العلاج الكيميائي والعلاج الإشعاعي والعلاج المناعي وتدخل جراحي بالعمود الفقري)، لكن كل شيء سار بشكل سيء، وازداد المرض انتشاراً وشعرت بالفشل قليلاً تجاهه. وفي الأسبوع الأخير من حياته، اتصلت بي زوجته وقالت: «انظر، لا يمكننا تحمل الأمر بعد الآن، فهو دائماً في السرير، والأمر لا يمكن السيطرة عليه. ما العمل؟». فقلت: «أحضروه إلي في المستشفى، سأدخله. نحن نعرف إلى أين هو ذاهب، وأتمنى أن يموت بكرامة». لذلك أخذته على الفور إلى قسم الأورام، وذهبت لرؤيته فقال لي: «شكراً لك على كل ما فعلته من أجلي». أشعر بالغضب في داخلي: «فكل شيء يسير على نحو سيء!». وفي السابعة صباحاً من اليوم التالي ذهبت لرؤيته أولاً وأكتشفت أنه أرسل زوجته لشراء بعض الهدايا لأطفالي. فأقول له: «لكنك تعرف إلى أين أنت ذاهب؛ لماذا فعلت ذلك؟». وقال: «أعلم جيداً إلى أين سأذهب، لكن بفضلك نظرت إلى المرض بطريقة مختلفة». وكان هناك على الفور تذكير آخر بالنسبة لي: أنا لست هناك لأشفى (إنني أرغب في شفائهم جميعاً!)، لكنني هناك لتبليغ شيء آخر. ومات ذلك الرجل سعيداً.

في ذلك الصباح، خرجت من الغرفة ومعي هديتين لأطفالي، مع ذلك التذكير الذي «شَقَّنِي» إلى نصفين، وأرى أحد المرضين تربطني به صداقة منذ خمس سنوات. وفي كل مرة نتناقش فيها، خاصة عن الحرب، يقول لي: «لديك زوجة إيطالية، وإيطاليا أجمل بلد في العالم، أُهرب! ما الذي تفعله هنا؟ لماذا تبقى؟ يمكنك الرحيل...». في ذلك اليوم، رآني، وأخبرته عن المريض، فقال لي: «منذ خمس سنوات وأنت تحاول أن تشرح لي سبب رغبتك في البقاء هنا. اليوم فهمت ذلك. عليك أن تبقى هنا». حقاً، إذا بقينا فهو لمهمة، مهمة عظيمة جداً.

وعندما اكتشفت أكثر محبة الله، اكتشفت أيضاً أكثر وأكثر قيمة جماعتنا: لقد تفاجئنا هذا العام بشعورنا كأسرة وإخوة. وبدأنا في فعل الأشياء معاً. صلاة التبشير الملائكي كل يوم في الواحدة ظهراً، وهي لحظة مهمة جداً بالنسبة لي، حيث نتوقف لنتذكر ما يوحدنا. وبعد ذلك مدرسة الجماعة كل

أسبوع (حتى لو عبر الإنترنت)، وإعطاء حكم جماعي، حكم عشناه في شركة. ونشأت أيضاً فكرة قضاء يوم تعايش مشترك مرة واحدة في الشهر .كم اكتشفنا بعضنا البعض كإخوة؟ الإخوة لا يدخرون جهداً في عطائهم الواحد للآخر، فالأمر لا ينحصر فقط في «عناقهم» لبعضهم البعض؛ إن الإخوة ينظرون إلى بعضهم البعض. كما قلت سلفاً، جماعتنا ليست سهلة، فهي مختلطة وهناك دائماً احتكاكات بين الأشخاص المختلفين. أحكي لكم فقط عن مكالمة أجريتها مع ثلاثة نساء فلسطينيات بسبب مشاكل كثيرة حدثت: بدأت المكالمة، في الساعة العاشرة مساءً، بنبرات غاضبة («نحن نريد أن تكون الأمور هكذا!») وفي لحظة معينة غضبت أنا أيضاً: «لماذا أنا هنا في العاشرة والنصف مساءً لأتحدث معكن؟ لأنني أحبكن! وأنتن أعضاء أساسيات في المسيرة التي نقوم بها، لأنكن أول تذكير لي. كما أن الآخرين، هم أساسيون أيضاً». ويسألونني: «ولكن كيف يمكننا أن نعيش هكذا؟». «بالانتماء إلى مكان». وهن: «ولكن كيف ننتمي أكثر فأكثر؟». «هناك شكل للانتماء: بالانضمام إلى الأخوية». وهن الثلاثة في صوت واحد: «نريد الانضمام إلى الأخوية!». لقد أدهشني ذلك كثيراً، لأنك في لحظة معينة تقرر أن ترد هذا الحب بالمثل: فبدلاً من أن تفعل ما يفعله العالم، تقرر هناك أن ترد هذا الحب بالمثل.

أقرأ لكم مقطعاً واحداً فقط من حوارات تيشريدن [Tischreden]، يقول فيه الأب چوسّاني: «من يؤمن بيسوع، ينجذب بقوة سر المسيح، ويدخل في شخصيته، فيصير هكذا جسداً واحداً، بالمعنى الحرفي للكلمة. ويتسع هذا الجسد، ومقدر له أن يتسع، ليكون مثمراً. فالعلاقة بين المسيح والرفقة التي يجعلها مثمرة: لأنه مُقدر لهذه الرفقة أن تجذب العالم، وتمتلكه». ثم يتابع: «إن ما يوحدنا ليس شعور، وليس ظاهرة اجتماعية تعبر عن نفسها، بل هو سر الوجود الذي يتم التعبير عنه بطريقة جديدة [...]. وهذه الرفقة مع المسيح مُقدر لها أن تكون مثمرة، أي أن تدخل إلى العالم أجمع. ومع اتساعه تدريجياً، يبدو أكثر وضوحاً أن هذه الرفقة تشكل شعباً داخل المجتمع الانساني: إنه شعب مختلف؛ يدرك ويتصور ويحكم ويحب ويقرر ويبدع بطريقة مختلفة» (حضور يُغَيِر، بور، ميلانو ٢٠٠٤، ص ٣٦٨).

أود في الواقع، أن أختم شهادتي كما بدأتها تماماً: «مُرسل من شخص ما، إلى شخص ما، مع شخص ما» هذا ما يميز حياتي. هذا هو الشيء الجديد في حياتي، الذي يجعلني إنساناً أفضل، و أباً أفضل لأطفالي، وزوجاً أفضل لزوجتي، وطبيب أورام أفضل لمرضاي وصديقاً أفضل لأصدقائي. وأشكركم.